

الاستفهام الحجاجي في مناظرة العلامة الحلي

مع علماء المذاهب الأربعة بمحضر

الشاه خدابنده

أ.د. عبد الإله عبد الوهاب هادي العرداوي

جامعة الكوفة/كلية التربية الأساسية

*The Argumentative Question in the Debate
of Allama Al-Hilli with the Four Doctrines
Scholars in the Presence of Shah Khadabandeh*

Prof. Dr. Abd Al-Ilah Abd Al-Wahhab Hadi

Al-Ardawi

University of Kufa/College of Basic Education

ملخص البحث

تعدُّ بلاغة الإقناع منطلق البلاغة العربيَّة وسمتها الناجعة، إذ انبثقت من الفلسفة والجدل اليوناني، ومنحت القول سلطة وقدسِيَّة، كما أنَّها مصدر إنبعث البلاغة الحديثة بعد عصور طويلة انحصر فيها اهتمام البلاغة في الصورة والحلية والمحسنات الأسلوبية، حتَّى غدت بلاغة (مختزلة) بحسب قول جيرار جنيت، أو (ميتة) بحسب قول رولان بارت. وبين المولد القديم والانبعث الحديث تبرز حركة عربيَّة إسلامية شكَّلت فيها بلاغة الاقناع تجسيداً لأجواء النضج العقلي، والصراع العقدي، والتي اعتمدت على مجال إجناسي تطبيقي، هو: المناظرة.

لقد تظهرت قضِيَّة الخلافة في حلبة للصراع بين المذاهب الإسلامية، حاول كلُّ فريق فيها تهية الأدلة والبراهين التي تؤكِّد أحقيَّته في الخلافة، وكانت المناظرات العقديَّة ميداناً خصباً للحوار في هذه المسألة، ومنها مناظرات فقيه من فقهاء الإمامية، يشار له بعلوِّ الهمة والنشاط في العلوم العقلية والنقلية، وهو: العلامة الحلي. وفي ضوء ذلك كان للبحث أن يوسم بـ(الاستفهام الحجاجي مقتضى إقناعي في مناظرة العلامة الحلي مع علماء المذاهب الأربعة بمحضر الشاه خدابنده)، وقسم البحث على مقدمة ومحورين، الأوَّل: الإطار النظري الذي قسَّم على أربع فقرات، الأولى: التعريف بالمقولات والمصطلحات الواردة في البحث كالمناظرة لغةً واصطلاحاً، والثانية: حجَّة المناظرة ومشروعيتها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ونصوص أهل البيت (عليه السلام)، والثالثة: آداب المناظرة، والرابعة: المناظرة أيقونة خطابية، ثمَّ المحور الثاني: الإطار

التطبيقي، وفيه كانت الخطوات الإجرائية للبحث ممثلة ببيان الاستفهام الحجاجي كمقتضى إقناعي من خلال عدة فقرات، الأولى: الاستفهام وبعده الحجاجي، الثانية: حجاجية السؤال في المناظرة، الثالثة: أبعاد السؤال في طور الافتتاح، الرابعة: أبعاد السؤال في طورَي المواجهة والمدافعة، الخامسة: مقصديات السؤال / سؤال التوريط، وختم البحث بخاتمة عرضت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، ثم ثبت المصادر والمراجع.



Abstract

The rhetoric of persuasion is the starting point of Arabic rhetoric and its effective characteristic, as it emerged from Greek philosophy and debate, and gave speech authority and sanctity. It is also the source of the resurgence of modern rhetoric after long ages in which the interest of rhetoric was limited to image, ornament and stylistic improvements until it became (reduced) rhetoric, according to Gerard Genette, or (dead) according to Roland Barthes. Between the old birth and the modern resurrection, an Arab Islamic movement emerged in which the eloquence of persuasion was an embodiment of the atmosphere of mental maturity and doctrinal conflict, which relied on an applied gender field: debate.

The issue of the caliphate appeared in an arena of conflict between Islamic sects in which each group tried to prepare the evidence and proofs that confirm its right to the caliphate, and the doctrinal debates were a fertile field for dialogue in this issue, including the debates of a jurist of the Imami jurists referred

to him for his high energy and activity in the intellectual and transmission sciences, which is Allama Al-Hilli

In light of this, the research was entitled to (The argumentative question in the debate of Allama al-Hilli with the four doctrines scholars in the presence of Shah Khadabandeh) and the research was divided into an introduction and two axes. idiomatically, the second: the authority and legitimacy of debate in the Holy Qur'an, the noble hadith and the texts of Ahl al-Bayt, peace be upon them, and the third: the etiquette of debate, and the fourth: the debate is a rhetorical icon.

Then the second axis: the applied framework: in which the procedural steps of the research were represented by the statement of the argumentative question as a persuasive requirement through several paragraphs, the first: the question and its dimension, the argument, the second: the argument of the question in the debate, the third: the dimensions of the question in the opening phase, the fourth: the dimensions of the question in the process Confrontation and Defense, Fifth: The objectives of the question/implication question, and the research concluded with a conclusion that presented the most important results that had been reached, then a list of sources and references.

المقدمة

الحمد لله الذي منّ علينا بنبّيه الصادق الأمين محمد ﷺ وأهل بيته الطاهرين ﷺ،
والصلاة والسلام على أفضل خلقه وأشرف بريّته، أئمة الهدى وسفن النجاة
آل البيت ﷺ المنتجبين، وبعد:

تعدُّ بلاغة الإقناع منطلق البلاغة العربيّة وسمتها الناجعة، إذ انبثقت من الفلسفة
والجدل اليونانيّ، ومنحت القول سلطة وقدسيّة، كما أنّها مصدر انبعاث البلاغة الحديثة
بعد عصور طويلة انحصر فيها اهتمام البلاغة في الصورة والحليّة والمحسنات الأسلوبية،
حتّى غدت بلاغة (مُختزلة)، بحسب قول جيرار جنيت، أو (ميتة)، بحسب قول
رولان بارت.

وبين المولد القديم والانبعاث الحديث، تبرز حركة عربيّة إسلاميّة، شكّلت فيها
بلاغة الاقناع تجسيداً لأجواء النضج العقليّ والصراع العقديّ، والتي اعتمدت على
مجال اجناسيّ تطبيقيّ، هو: المناظرة.

يفرض خطاب المناظرة بوصفه جنساً حجاجياً أسلوباً للتفاعل والتناظر بين مختلف
الفئات والأفراد، بما يشكّل ثقافة الحوار الأنسانيّ والبديل عن العنف والتطرّف؛ ذلك
أنّ بلاغة الاقناع تمثّل الجواب المعرفيّ عن الاختلاف، ونبد صيحات الفرقة والإقصاء،
فكان ما تقدّم سبباً لنا لاختيار اشتغال تطبيقيّ للمناظرة في قضيّة عقديّة محوريّة في
الثقافة العربيّة الإسلاميّة، ألا وهي: الخلافة والإمامة.

لقد تظاهرات قضية الخلافة في حلبة للصراع بين المذاهب الإسلامية، حاول كل فريق فيها تهيئة الأدلة والبراهين التي تؤكد أحقيته في الخلافة، وكانت المناظرات العقدية ميداناً خصباً للحوار في هذه المسألة، ومنها مناظرات فقيه من فقهاء الإمامية، يُشار له بعلو الهمة والنشاط في العلوم العقلية والنقلية، وهو: العلامة الحلي.

وفي ضوء ذلك كان للبحث أن يوسم بـ (الاستفهام الحجاجي في مناظرة العلامة الحلي مع علماء المذاهب الأربعة بمحضر الشاه خدابنده)، وقسم البحث على مقدمة ومحورين، الأول: الإطار النظري الذي قسم على أربع فقرات، الأولى: التعريف بالمقولات والمصطلحات الواردة في البحث كالمناظرة لغة واصطلاحاً، والثانية: حجية المناظرة ومشروعيتها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ونصوص أهل البيت (عليه السلام)، والثالثة: آداب المناظرة، والرابعة: المناظرة آيقونة خطابية، ثم المحور الثاني: الإطار التطبيقي، وفيه كانت الخطوات الإجرائية للبحث ممثلة ببيان الاستفهام الحجاجي كمقتضى إقناعي من خلال عدة فقرات، الأولى: الاستفهام وبُعد الحجاجي، الثانية: حجاجية السؤال في المناظرة، الثالثة: أبعاد السؤال في طور الافتتاح، الرابعة: أبعاد السؤال في طوري المواجهة والمدافعة، الخامسة: مقصديات السؤال / سؤال التوريط، وختم البحث بخاتمة عرضت أهم النتائج التي توصل إليها، ثم ثبت المصادر والمراجع. وأخيراً هذا ما وفقنا الله تعالى، في الكشف عن مواطن الاستفهام الحجاجي كمقتضى إقناعي في مناظرة العلامة الحلي مع علماء المذاهب الأربعة بمحضر الشاه خدابنده، فنسأل الله الغفران إن قصّرنا ولم استطع أن أحيط بكل الموضوع، أو فاتني شيء منه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين.

المحور الأول

الإطار النظري: التعريف بالمصطلحات والمقولات الواردة في البحث

أولاً: المناظرة لغة واصطلاحاً

لغة:

يقول صاحب لسان العرب في المفهوم اللغوي للمناظرة: «والتَّنَاطُرُ: التَّرَاوُضُ في الأمر، وَنَظِيرُكَ: الذي يُرَاوَضُكَ وتُناظِرُهُ، وناظِرُهُ من المُنَاطَرَةِ، والنَّظِيرُ: المِثْلُ، وقيل: المِثْلُ في كل شيء، وفلان نَظِيرُكَ أي مِثْلُكَ لَأَنَّهُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّاطِرُ رَأَاهَا سَوَاءً»^(١)، و«النَّظَرُ والنَّظِيرُ بمعنى مثل النَّدِّ والنَّدِيدِ، ويقال: ناظَرْتُ فلاناً أي صَرْتُ نَظِيراً له في المخاطبة، وناظَرْتُ فلاناً بفلان أي جعلته نَظِيراً له»^(٢).

ومن خلال هذا المعنى اللغوي تتضح جملة من السمات التي تحدّد المناظرة، فهي تقتضي النَّدِيَّةَ، وتجري بين المتخاصمين في وضع تفاعلي مبني على الحوار حول موضوع مشترك^(٣). ويرى أحد الباحثين أنّ ابن منظور يحدّد المناظرة بوصفها حواراً دون سطوة أو استكراه، ويفسّر لفظة (التراوض) عنده على أنّه إعادة التكوين^(٤).

(١) لسان العرب: ٢١٩/٥ (مادة نظر)، وينظر: المخصّص: ج ٣ ق ٣ (السفر الثاني عشر: ٢١٣)، والقاموس المحيط: ١٤٥/٢.

(٢) لسان العرب: ٢١٩/٥ (مادة نظر).

(٣) بلاغة الإقناع في المناظرة: ١٢٩.

(٤) ينظر: المنهج وأدب الحوار في مناظرة السيرافي ومثي: ٣٤.

اصطلاحًا:

ارتبطت الدلالة الاصطلاحية للمناظرة بـ(الجدل)، فابن خلدون يؤكد علاقتهما الاصطلاحية، فيقول: «وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعًا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا، ومنه ما يكون خطأ»^(١).

ولا يتعد حاجي خليفة في كشف الظنون عن ابن خلدون في بيان التداخل بين الجدل والمناظرة، فيقول معرفًا الجدل: «هو علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على إبرام ونقض، وهو من فروع علم النظر، ومبنى لعلم الخلاف مأخوذ من الجدل الذي هو أحد أجزاء مباحث المنطق، لكنه خُصَّ بالعلوم الدينية ومبادئه، بعضها مبينة في علم النظر، وبعضها خطائية، وبعضها أمور عادية، وله استمداد من علم المناظرة»^(٢). ويؤكد الارتباط بينهما بقوله: «ولا يبعد أن يقال إنَّ علم الجدل هو علم المناظرة؛ لأنَّ المآل منهما واحد، إلا أنَّ الجدل أخص منه»^(٣).

ويعرّف طاش كبرى زادة المناظرة تعريفًا جامعًا مانعًا بقوله: «اعلم أنَّ المناظرة في اللغة مأخوذ إمَّا من النظير أو من النظر بمعنى الإبصار أو الانتظار، وفي الاصطلاح: هي النظر بالبصيرة من الجانبين بالنسبة بين الشئين إظهارًا للصواب»^(٤)، وهي بحسب هذا التعريف مباحثة عقلية تتمَّ بجانبين في مهادٍ خلافيٍّ، ومتوخية إظهار الصواب»^(٥).

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٤٥٧.

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١/ ٥٧٩.

(٣) م.ن: ١/ ٥٨٠.

(٤) شرح آداب البحث: ١٧.

(٥) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة: ١٣٠.

وعليه فالعلماء العرب القدامى يمحون الحدود بين الجدل والمناظرة، لكن الدراسات الحديثة تفرّق بينهما، فالفارق «أخلاقيّ يتّصل بالهدف، فهدف المناظرة الكشف عن الحقيقة أو الصواب، وهدف الجدل التغلّب على الخصم»^(١)، كما يثبت ابن خلدون «الصفة الحجاجيّة للمناظرة، والتي تأتيها من خاصيّة المواجهة الخطابية القائمة على القبول والاعتراض والاستدلال والجواب»^(٢).

ومن المعاصرين من يعرف المناظرة بأنّها كانت تُستعمل في القرون الأربعة الأولى للهجرة «للدلالة على نصّ صغير أو كبير، يعرض حواراً بين شخصين وأحياناً أكثر، كلّ من الاثنين يخالف الآخر في الموضوع المطروح للمناقشة، ويتبنّى فرضيّة الخصم، ويحاول دعمها بالحجج والبراهين، وإدحاض فرضيّة الآخر وأدلّته»^(٣)، أو هي «ممارسة حوارية قائمة على التفاعل بين متخاطبين، يشتركان في صنع المعرفة عبر مسارٍ حجاجيٍّ»^(٤).

ولا بدّ من القول هنا، إنّ هذه العجالة اللغويّة والاصطلاحية لا تشكّل إماماً بمصطلحات المناظرة والمقولات المعرفيّة فيها، لكنّها تبقى إضاءة سريعة في حدود صفحات البحث.

ثانياً: حجية المناظرة ومشروعيتها في القرآن والحديث النبويّ ونصوص

أهل البيت عليه السلام^(٥)

لقد شرّع القرآن الكريم المناظرة، وجعل لها حدوداً وضوابط، وأكد ضرورتها

(١) المنهج وأدب الحوار في مناظرة السيرافيّ ومثي: ٣٥.

(٢) بلاغة الإقناع في المناظرة: ١٣٠.

(٣) المناظرة في الأدب العربيّ الإسلاميّ: ٦٣.

(٤) بلاغة الإقناع في المناظرة: ١٣١.

(٥) ينظر في هذا الموضوع: المناظرات في الإمامة: ٢٣-٢٩.

وأهميتها، وذلك في كثير من آيات الذكر الحكيم، وهذا ما يصور لقارئ القرآن الكريم احتلال المناظرة جانباً حيويّاً في حياة سائر الأديان، إذ ما من رسولٍ أو نبيٍّ إلّا وقد ناظر قومه وحاججهم وجادلهم في إثبات صحّة ما يدعوههم إليه، ومّا يزيد الأمر وضوحاً «هو أن الله تعالى قد أمر رسوله الكريم ﷺ بمجادلة المشركين ودعوتهم إلى الحقّ، بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

كما أمر تعالى بمجادلة أهل الكتاب بالحكمة والموعظة؛ لما في ذلك من إلانة قلوبهم وانصياعهم إلى الحقّ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٢)؛ لأن الغلظة في المناظرة والجدل لا تزيد الطرف الآخر إلّا نفوراً، وعناداً، وتعصّباً، وتمسّكاً بالباطل، كما أوضحه تعالى في قوله الكريم: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأْتَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٣).

وهذا ما يكشف عن أسلوب المناظرة النبويّة، فهو الأسلوب الأمثل الذي يجب مراعاته بين المتناظرين.

ومن الأدلّة والشواهد القرآنيّة التي تبيّن مشروعيّة المناظرة وحجّيّتها في الإسلام، قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ^(٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) العنكبوت: ٤٦.

(٣) آل عمران، من الآية: ١٥٩.

بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

وهنا يلاحظ ما في جواب من أنكر الإحياء بعد الإماتة، وما فيه من أدلة عظيمة، وأسلوب رائع يأخذ بمجامع القلوب، ويسوقها طوعاً إلى الإذعان والتصديق، ومنه ينكشف مدى تأثير الدليل وطريقة عرضه، إذ بهما يخلق من الطرف الآخر إنساناً سلس الانقياد.

ولم يقتصر هذا الأمر على مناظرات نبيِّنا ﷺ مع مشركي مكة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، وإنما كان ذلك الأسلوب من المناظرة والجدل متبعاً من قِبل الأنبياء ﷺ مع مشركي أقوامهم، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع نمرود، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبُدُ وَأُمِّيْتَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢). ومثله أيضاً ما جاء في محاجة قومه له عليه السلام، وجوابه لهم كما في قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

ومثله أيضاً «ما جاء في محاجته ﷺ لقومه حينما كسر أصنامهم، وقد ألزمهم بالحجة والعقل والرجوع إلى وجدانهم وعقولهم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِنَا يَا ابْنِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٣)

(١) يس: ٧٨-٨٢.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

(٣) الأنعام: ٨٠-٨١.

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ
مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا
وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾.

ومنها مجادلة نوح عليه السلام لقومه الذين ركبوا رؤوسهم عنادًا وازدادوا غياً وفساداً،
حيث قالوا له، وهو يجادلهم في الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا
فَأَيْنَا يَمَاعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٦٧).

ومن هنا يتبين أن المناظرة أو الجدل لو لم تكن مشروعة؛ لما أمر الله تعالى بها
أنبياءه عليه السلام، في حين أن القرآن الكريم يزخر بمحاججات الأنبياء لأقوامهم، لاسيما
نبيينا ﷺ، وهو القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذي لا ينتهي حديث عظمته، ولا تزيده
الدهور إلا سناءً وعلوًا.

أما موقف السنّة المطهّرة من المناظرة، فهو لا يختلف عن حكم القرآن، فكلاهما
- القرآن والسنّة - صنوان لمشروع واحد، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا
وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٣).

ومما ورد من الأدلّة والشواهد على مشروعيّة المناظرة وحجّيّتها من السنّة
الشريفة:

منها: ما روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «نحن المجادلون في دين الله على لسان سبعين
نبيًّا» (٤).

(١) الأنبياء: ٦٢-٦٧.

(٢) هود: ٣٢.

(٣) النجم: ٣-٤.

(٤) الاحتجاج: ١/٥.

ومنها: ما روي من مناظرات النبي ﷺ مع أهل الأديان وغيرهم، ومما يروى بهذا الصدد من اجتماع أهل خمسة أديان وُفِرَق - وهم: اليهود، والنصارى، والديهرية، والثنوية، ومشركو العرب، عند النبي ﷺ، واحتجاج كل فريق منهم لدعواه، وجواب النبي ﷺ لهم، وإبطاله لمزاعمهم^(١).

كما أنَّ المتتبع لسيرة الأئمة عليهم السلام يجد أمثلة كثيرة جداً في مناظراتهم واحتجاجاتهم مع خصومهم، كما وردت عنهم عليهم السلام أخبار كثيرة بشأن مجادلة الخصوم وإقناعهم، وكانوا عليهم السلام يأمرّون بعض أصحابهم بذلك، ممَّن يتوسَّمون فيه القدرة على مقارعة الحجّة بالحجّة، كما هو المشهور في موقف الإمام الصادق عليه السلام من هشام بن الحكم وثلّة من أصحابه الذين كانوا بالمرصاد في تصدّيهم للزنادقة والملحدّين والمخالفين في المسائل الاعتقاديّة، كالمجبرة والمفوّضة والمجسّمة وغيرها من المذاهب الأخرى. وفيما يلي نذكر بعض الروايات عن أهل بيت النبوّة عليهم السلام الدالّة على ما أسلفناه، منها: رواية الشيخ المفيد بإسناده عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عن أبيه الباقر عليه السلام، قال: «من أعاننا بلسانه على عدوّنا أنطقه الله بحجّته يوم موقفه بين يديه ﷻ»^(٢).

ومنها: قول الصادق عليه السلام: «حاجّوا الناس بكلامي، فإنّ حجّوكم فأنا المحجّوج»^(٣).

ومنها: ما رواه ثقة الإسلام في الكافي من مناظرة هشام بن الحكم مع عمرو بن عبيد، حتّى أنّ الإمام الصادق عليه السلام أحبّ أن يسمع من هشام نفسه ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد.

(١) ينظر: الاحتجاج: ١٦/١.

(٢) الأمالي، الشيخ المفيد: ٣٣.

(٣) تصحيح اعتقادات الإماميّة: ٧١.

ومع هذا كله، فقد تحيل بعض المخالفين أن المناظرة محرمة في رأي أهل البيت عليه السلام، وأن ما يفعله الشيعة يخالف أمر أئمتهم، قال الشريف المرتضى في الفصول المختارة من العيون والمحاسن: «قلت للشيخ أبي عبد الله: إن المعتزلة والحشوية يزعمون أن الذي نستعمله من المناظرة شيء يخالف أصول الإمامية، ويخرج عن إجماعهم؛ لأن القوم لا يرون المناظرة ديناً، وينهون عنها، ويروون عن أئمتهم تبديع فاعلها وذم مستعملها، فهل معك رواية عن أهل البيت عليه السلام في صحتها، أم تعتمد على حجج العقول، ولا تلتفت إلى من خالفها، وإن كان عليه إجماع العصابة؟ فقال: أخطأت المعتزلة والحشوية فيما ادَّعوه علينا من خلاف جماعة أهل مذهبنا في استعمال المناظرة وأخطأ من ادَّعى ذلك من الإمامية أيضاً وتجاهل؛ لأن فقهاء الإمامية ورؤساءهم في علم الدين كانوا يستعملون المناظرة، ويدينون بصحتها، وتلقى ذلك عنهم الخلف ودانوا به. وقد أشبعت القول في هذا الباب، وذكرت أسماء المعروفين بالنظر وكتبهم ومدائح الأئمة لهم في كتابي (الكامل في علوم الدين)، و(كتاب الأركان في دعائم الدين)، وأنا أروي لك في هذا الوقت حديثاً من جملة ما أوردت في ذلك إن شاء الله. أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد (بسنده) عن أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، قال: قال لي: خاصموهم وبيّنوا لهم الهدى الذي أنتم عليه، وبيّنوا لهم ضلالتهم وباهلهم في علي عليه السلام»^(١).

إلى غير ذلك من الأدلة والشواهد التي تنص على مشروعية المناظرة وحجيتها.

ثالثاً: آداب المناظرة

وفيما يأتي نذكر أهم الآداب التي ينبغي مراعاتها في المناظرة، وهي^(٢):

- (١) الفصول المختارة من العيون والمحاسن: ٢٨٤، وينظر: الحكايات: ٧٣-٧٥.
- (٢) هذه النقاط ملفقة من عدة مصادر. ينظر: منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ٣١١-٣١٤، ودلائل الصدق لنهج الحق: ١/ ١٤-١٥، والمنطق: ٤١٧-٤١٩.

١. أن يكون (الناظر) في طلب الحق كمنشد ضالة، يكون شاكراً متى وجدها، ولا يفرق بين أن يظهر على يده أو على يد غيره، فيرى رفيقه مُعيناً لا خصيماً، ويشكره إذا عرّفه الخطأ، وأظهر له الحق، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالة فنبّهه غيره على ضالّته في طريق آخر، والحق ضالة المؤمن يطلبه كذلك، فحقّه إذا ظهر الحق على لسان خصمه أن يفرح به ويشكره، لا أنّه يُحجّله ويسود وجهه ويزيل لونه، ويجتهد في مجاهدته ومدافعتة جهده.

٢. أن لا يمنع معينه من الانتقال من دليل إلى دليل، ومن سؤال إلى سؤال، بل يمكنه من إيراد ما يحضره، ويُخرج من كلامه ما يحتاج إليه في إصابة الحق، فإن وجده في جملة أو استلزمه، وإن كان غافلاً عن اللزوم؛ فليقبله ويحمد الله تعالى، فإن الغرض إصابة الحق، وإن كان في كلامٍ متهافٍ إذا حصل منه المطلوب، فأماً قوله: (هذا لا يلزمني، فقد تركت كلامك الأوّل، وليس لك ذلك)، ونحو ذلك من أراجيف المناظرين، فهو محض العناد والخروج عن نهج السداد.

وكثيراً ما ترى المناظرات في المحافل تنقضي بمحض المجادلات حتّى يطلب المعارض الدليل عليه، ويمنع المدّعي ما هو عالم به، وينقضي المجلس على ذلك الإنكار والإصرار على العناد، وذلك عين الفساد، والخيانة للشرع المطهر، والدخول في ذمّ من كتم علمه.

٣. أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتّفق، لا ظهور صوابه وغزارة علمه، وصحّة نظره، فإن ذلك مرأى قد عرفت ما فيه من القبائح والنهي الأكيد، ومن آيات القصد أن لا يوقعها إلّا مع رجاء التأثير، فأماً إذا علم

عدم قبول المناظر للحق، وأنه لا يرجع عن رأيه وإن تبين له خطأه، فمناظرته غير جائزة؛ لترتب الآفات وعدم حصول الغاية المطلوبة منها.

٤. أن يناظر في واقعة مهمّة، أو في مسألة قريبة من الوقوع، وأن يهتم بمثل ذلك، والمهم أن يبين الحق، ولا يطول الكلام زيادة عما يحتاج إليه في تحقيق الحق.

ولا يغترّ بأن المناظرة في تلك المسائل النادرة توجب رياضة الفكر وملكة الاستدلال والتحقيق، كما يتفق ذلك كثيراً لقاصدي حظّ النفوس من إظهار المعرفة؛ فيتناظرون في التعريفات، وما تشتمل عليه من النقوض والتزييفات، وفي المغالطات ونحوها، ولو اختبر حالهم حق الاختبار؛ لوجد مقصدهم على غير ذلك الاعتبار.

٥. أن يتخير الألفاظ الجزلة الفخمة، ويتجنب العبارات الركيكة العامية، ويتقي التمتمة والغلط في الألفاظ والأسلوب.

٦. أن يكون متمكناً من إيراد الأمثال والشواهد من الشعر، والنصوص الدينية، والفلسفية، والعلمية، وكلمات العظماء، والحوادث الصغيرة الملائمة - وذلك عند الحاجة طبعاً - بل ينبغي أن يكثر من ذلك ما وجد إليه سبيلاً، وذلك يعينه على تحقيق مقصوده وهدفه، والمثل الواحد قد يفعل في النفوس ما لا تفعله الحجج المنطقية من الانصياع إليه والتسليم به.

٧. أن يتجنب عبارة الشتم واللعن، والسخرية والاستهزاء، ونحو ذلك مما يثير عواطف الغير، ويوقظ الحقد والشحناء، فإنّ هذا يفسد الغرض من المجادلة التي يجب أن تكون بالتي هي أحسن.

٨. ألا يرفع صوته فوق المألوف المتعارف، فإنّ هذا لا يكسبه إلاّ ضعفاً، ولا يكون

إلا دليلاً على الشعور بالمغلوبيّة، بل يجب عليه أن يُلقي الكلام قويّ الأداء، لا يشعر بالتردّد والارتباك والضعف والانهيار، وإن أدّاه بصوتٍ منخفضٍ هادئ، فإن تأثير هذا الأسلوب أعظم بكثير من تأثير أسلوب الصياح والصراخ.

٩. أن يتواضع في خطاب خصمه، ويتجنّب عبارات الكبرياء والتعاضم، والكلمات النابية القبيحة.

١٠. أن يتظاهر بالإصغاء الكامل لخصمه، ولا يبدأ بالكلام إلا من حيث ينتهي من بيان مقصوده، فإنّ الاستباق إلى الكلام سؤالاً وجواباً قبل أن يتمّ خصمه كلامه يُربك على الطرفين سير المحادثة، ويُعقّد البحث من جهة، ويثير غضب الخصم من جهةٍ أخرى.

١١. أن يتجنّب - حدّ الإمكان - مجادلة طالب الرياء والسمعة ومؤثر الغلبة والعناد ومدّعي القوّة والعظمة، فإنّ هذا من جهة يعديه بمرضه، فينساق بالأخير مقهوراً إلى أن يكون شبيهاً به في هذا المرض، ومن جهةٍ أخرى لا يستطيع مع مثل هذا الشخص أن يتوصّل إلى نتيجة مرضية في المجادلة.

١٢. أن يكون مطلعاً على أفكار خصمه وآرائه من كتبه ومصادره، لا من كتبه ومصادره هو.

١٣. أن يكون هاضماً للفكرة التي يريد طرحها، ومحيطاً بها تماماً، ومقتنعاً بها، لكي يتمكن من إقناع خصمه.

١٤. وينبغي أن يختار الكلام المناسب للزمان والمكان، فإنّ لهما تأثيراً كبيراً في النفوس، ومن هنا قيل في المثل المشهور: لكلّ مقام مقال.

١٥. أن يخاطب خصمه بكلام مفهوم، مراعيًا مقدار فهمه، ومستواه الفكري، بأسلوب حسن، ومنطقي سديد.

رابعاً: المناظرة آيقونة خطابية

لقد ازدهرت الخطابة في العصر الأموي بفعل التناقضات العقدية بين المذاهب السياسية، ونتيجة التنازع حول شرعية موضوعة أحقية الخلافة، وبذلك كان النص الديني وتأويله من المصاديق المهمة لانتصار هذا المذهب أو ذاك، وكانت الخطابة تجسيداً للاختلاف في الآراء السياسية والدين، ممّا جعل «هذه الفترة من أهم الفترات الخصبية في تاريخ الثقافة الإسلامية في وضع القول في مواجهة إمكاناته، واكتشاف ما للغة من قدرة على قول الشيء ونقيضه، وإمكانية أن يقوم الرأي والرأي المضاد»^(١).

ومن آيقونة هذه الخطابة، ونتيجة للارتقاء المعرفي الواسع الذي رقد العقل العربي بتمظهرات اجناسية جديدة، انبثقت المناظرات، وهي بحسب رأي أحد المعاصرين «فرع مهم من فروع الخطابة»^(٢).

لقد كان لبيئة الفقهاء والمتكلمين وسجالهم أثر كبير في إعطاء الخطابة طابعاً عقلياً وحجاجياً حوّلها إلى مناظرات، ولذلك عدّ الدكتور محمد العمري أن تطوّر الخطابة الدينية قاد إلى تشكّل ثلاثة أصناف صدرت عنها، وهي تختلف بحسب المتلقي، وبحسب الرسالة الموجهة إليه، فيقول: «فهو - أي المتلقي - إمّا أن يكون خالي الذهن، يتقبّل المعرفة الملقاة إليه، وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإمّا أن يكون متناسياً لما تعلم، غافلاً عما ينتظره، فيتطلب حالة الحثّ على العمل والتخويف من العقاب، وتلك

(١) مقدّمة في الخلفيّة النظرية للمصطلح: ٢٨.

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ٦٥.

هي الخطابة الوعظية، وإمّا أن يكون عالماً مخالفاً وجاحداً لوجهة نظر الخطيب، وفي هذه الحالة لا بدّ من المحاجة والبرهنة، وتلك هي الخطابة الحجاجية أو المناظرات^(١)، وبحسب هذا التخريج «فإنّ المناظرة خطابة حجاجية تسائل جحود المخاطب الذي يفترض فيه أن يكون ملماً بالموضوع عالماً به، ولكنّه مُنكر لموقف مناظره بخصوصه، وهكذا فإذا كانت الخطابة بشكلٍ مطلقٍ تستهدف الجموع والعوام، فإنّ المناظرة خطابة الخاصّة، وهو الأمر الذي تفسّر المجالس المغلقة التي شكّلت فضاء المناظرة، بحيث يكون الحضور مقصوراً على العلماء والتخصّصيين والأدباء.. ومن ثمّ فالمناظرة خطابة فكرية ومذهبية جسّدت الحركة المعرفية التي سرت بشكلٍ دينامي في المجتمع العربي الإسلامي»^(٢).

ومما تقدّم، فإنّ نقطة الالتقاء بين الخطابة والمناظرة هي «الخاصية التداولية التي تجعلهما مرتبطتين بمقامات فكرية واجتماعية... كما يشتركان في الخاصية الجدلية التي تجعلهما يتوخيان الإقناع، إلّا أنّ المناظرة عكست تطوّراً لاحقاً لفنّ الخطابة، إنّها خطابة مشبعة بالمحاجة الفكرية والمذهبية»^(٣).

وفي هذه الوريقات البحثية سنعالج تمظهر الاستفهام الحجاجي كمقتضى إقناعي في مناظرة العلامة الحليّ مع علماء المذاهب الأربعة بمحضر الشاه خدابنده.

(١) في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٣٦.

(٢) بلاغة الإقناع في المناظرة: ١٥٠.

(٣) م.ن: ١٥١.

المحور الثاني

الإطار التطبيقي

إنَّ الاستفهام وفق تعبير البلاغيين العرب القدامى، هو طلب المتكلم معرفة أمرٍ مجهولٍ لديه، لذلك يقول ابن وهب: «ومن الاستفهام ما يكون سؤالاً عما لا تعلمه لتعلمه»^(١)، أو هو «طلب المراد من الغير على وجه الاستعلام»^(٢).

الاستفهام وبعده الحجاجي

يعدُّ التركيب الاستفهامي من أهم «التراكيب الإنشائية التي تميّزت بقدرتها على الفعل، وتوجيه فعل القول نحو غايات ومقاصد حجاجية مهمّة»^(٣)، فقد أخذ مكانة مهمّة عند أوستن وسيرل ضمن تصنيفاتهم للأفعال الإنجازيّة، وميّز ديكر ووانسكومبر بين نوعين من الاستفهام، الأوّل: يستلزم تأويل القول المراد تحليله انطلاقاً من قيمته الحجاجية، والثاني: الاستفهام العادي، والذي يقصد المستفهم من ورائه إلى معرفة صدق الخبر أو كذبه. ولكن هذا النوع قد يوظفه المتكلم ويصبح بالنتيجة عنصراً من عناصر العلاقة الحجاجية، وسيكون له إذ ذاك بُعد وطابع حجاجي^(٤)، أي إنّه يمكن مبدئياً التمييز بين شكّلين من الاستفهام: استفهام مباشر يعتمد على أدوات الاستفهام

(١) البرهان في وجوه البيان: ٩٤.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٥٣٢ / ٢.

(٣) رسائل الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة - دراسة حجاجية: ١٥٤.

(٤) ينظر: الخطاب والحجاج: ٥٨.

المعلومة، والآخر استفهام غير مباشر يعتمد على استعمال فعل يتضمّن معنى السؤال أو الاستعلام أو يكشف عن جهل السائل^(١).

ولإيضاح الأمر أكثر نقول: «إنّ الاستفهام في كثير من الحالات يخرج عن مراده الحقيقي المتمثل في طلب الإفهام والاستعلام لما يحمله السائل إلى مراد آخر يهدف منه المرسل، وهو العارف بالجواب سلفاً، إلى تحدّي المخاطب في أن يستطيع الإنكار أو حتّى الإجابة»^(٢)، وهذا ما أشار إليه ديكر و حينما ذكر أنّ الغاية من الاستفهام تتمثل في أن نفرض على المخاطب به إجابة محدّدة يملئها مقتضى الناشئ عن الاستفهام، فيتّم توجيه دفة الحوار الذي نخوضه معه الوجهة التي نريد^(٣).

فالاستفهام يأتي في الكلام لإجبار المخاطب على الإجابة وفق ما يرسمه له البعد الاستفهامي الاقتضائي، وهذا النوع من الاستفهام هو الذي يسمّيه بلونتين بـ (الاستفهام الحجاجي) أو (السؤال الحجاجي) الذي ليس استخباراً وطلب جواب، بل هو وسيلة حجاج، فخرج الاستفهام الحقيقي إلى استفهام بلاغي / حجاجي يهدف إلى تحقيق أفعال إنجازيّة، وهذا الأمر يتطلّب ألا يقوم المخاطب بقراءة حرفيّة للملفوظ، أو على المصّرّح به بل ينسب على المضمون القولي، وهو امر اشار اليه ديكر و حين بيّن أنّ الافتراضات الضمنيّة في بعض الأسئلة هي التي تجعل من الاستفهام أسلوباً حجاجياً؛ لأنّ آية إجابة - مهما كان نوعها - لا بدّ أن تسلّم بتلك الافتراضات، بل تقرّ ضمناً بصحّتها^(٤).

(١) ينظر: المناظرة في الأدب الإسلامي: ٣٥٢.

(٢) رسائل الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة - دراسة حجاجيّة: ١٥٥.

(٣) ينظر: الخطاب الحجاجي في كتاب الإمامة والسياسة: ٣٠٤.

(٤) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: ١٤٢-١٤٣.

حجاجية السؤال في المناظرة

للسؤال في المناظرة دور محوري، ف«دون السؤال نكون خارج النقاش»^(١)، وإذا كانت المناظرة تبنى على «اختلاف بين الذوات في مقارنة قضية معينة، فإن السجال الذي يشكل قيمتها المهيمنة مبناه على السؤال. هذا الأخير يعدُّ الوسيلة الأكثر استخدامًا في آية مواجهة اقتناعية تجري بين طرفين، وأداة المطارحة الكفيلة بمساءلة اعتقادات الآخر، واستجواب قناعاته»^(٢).

إن السؤال يقتضي تفاعلًا بين الذوات المعنية به، أي انخراطها التخاطبي في التفاوض حوله، يكون السؤال بذلك إطلاقًا للمفاوضة^(٣)، وهو هذه الصفة يصبح محرّكًا للسجال والاستدلال، أي منتجًا للعديد «من الأقوال التي تقدّم نفسها (حسنًا) للسؤال، أو على الأقل الجواب المناسب عنه»^(٤)، لذلك يقول ميشال ماير: «إذا لم يكن هناك سؤال، لن يكون هناك سجال؛ لأنّه لن يكون هناك إلا جواب واحد»^(٥).

وإذا كانت المناظرة مطارحة معرفية، فإنّ بناء قضاياها يتوقّف على الإنتاج المستمرّ (الأفكار/ الأجوبة) التي يدلي بها المتحاوران، هذه الأجوبة تنتج عن البحث الذي ينتج بدوره عن السؤال، لذلك «فليس هناك إلا السؤال لتغذية البحث»^(٦).

(1) Michel Meyer. Pour une Anthropologie Rhetorique, p. 128.

نقلًا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(٢) بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(3) Michel Meyer. Introduction a Aristote, Rhetorique, p. 43.

نقلًا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(٤) بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(5) Ibid, p. 7.

نقلًا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(6) Michel Meyer. de la problematologie, p. 234.=

إنَّ التوليد الفكريّ محاث دائماً لمسار القضية التي يتحاور بها الطرفان المتخاصمان، فبالسؤال تُستدعى الأجوبة، وتُبنى البدائل التي تطوّر المعرفة، الأمر الذي يعني بحسب مانويل ماريا كاريلهو أنَّ «العقل حركة للسؤال لا تنضب»^(١).

إنَّ الاستفهامات المستعملة في المناظرة تحمل أهدافاً إقناعية، فبحسب بيير أوليرون فإنَّ المبادلات الكلامية التي تجمع أشخاصاً متناقضين «نادرًا ما تكون الأسئلة فيها محايدة ومحض إخبارية»^(٢)؛ لأنَّ التقاطب هو الذي يوجه أقوال هؤلاء الأشخاص، لذلك انتهى سورل إلى أنَّ الاستفهام في هذه المقامات الحوارية ليس (سؤالاً مخلصاً)^(٣)، الذي يتحقّق فقط حين يكون السائل جاهلاً بالجواب.

ويُتّضح في نصّ مناظرة العلامة الحليّ السؤال الحجاجي الذي شغل بعض أو كل أطوار المناظرة الشكلية في (الافتتاح)، وفي طوري (المواجهة)، و(المدافعة)^(٤).

أبعاد السؤال في طور افتتاح المناظرة

تُستهلُّ المناظرة بالسؤال لتنشيط الماهيات المعرفية عند المتحاورين، ومناظرة العلامة الحليّ مع علماء المذاهب الأربعة تُستفتح بالسؤال الذي يأخذ إبعاداً حجاجية مختلفة، منها:

=نقلًا عن: بلاغة الاقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(1) Manuel Maria Carrilho: de la problematologie, p. 78.

=نقلًا عن: بلاغة الاقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(2) Pierre Oleron: Organization et Articulation des echanges de paroles, p. 78.

=نقلًا عن: بلاغة الاقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(3) Ibid.

(٤) هذه المصطلحات وظّفها الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه: اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ.

أ. بعد التقرير:

إنَّ الأسئلة في افتتاح المناظرة تبرز على أنَّها ليست أسئلة استعلام، فهي لا تستخبر؛ لأنَّ المحاور يعرف مسبقاً الجواب، ومن ثمَّ فهي أسئلة تقريرية تهيء أرضية الحجاج والمجادلة، وهذا ما نراه في مناظرة العلامة الحلي مع المذاهب الأربعة، فالشاه خدابنده^(١) غضب على امرأته وطلَّقها ثلاثاً، ثمَّ ندم وجمع علماء المذاهب، وأراد من يحلِّل القضية، فسأل: «عندكم في كلِّ مسألة أقاويل مختلفة، أو ليس لكم هنا اختلاف؟»^(٢)، وهو هنا يعرف الجواب، ولا يريد تقرير قضية يعلمها، لكنَّه أراد فتح باب الحجاج لحلِّ المسألة.

وعندما كان الجواب «فقالوا: لا»^(٣)، تأتي فرجة الحجاج في قول أحد وزرائه: «إنَّ عالمًا بالحلَّة، وهو يقول ببطلان هذا الطلاق»^(٤).

ب. بعد التحضير والإعداد:

إذا كان ميشال ماير قد انتهى إلى ان السؤال قد يشكل في المحاورات وسيلة لـ «إعداد الآخرين وتهيأتهم»^(٥)، فإنَّ استفهامات الافتتاح في المناظرة واحدة من مصاديقه،

(١) محمَّد بن أرغون بن أبغا بن هلاكو بن تولى بن جنكز خان المغولي، السلطان غياث الدين المعروف بخدابنده، ومعناه بالعربية عبد الله، ملك العراق وخراسان وأذربيجان، ولد سنة نيّف وسبعين وستمئة، كان على مذهب العامّة فتشيع، وكان يحب العمارة، أنشأ مدينة جديدة بأذربيجان سمّاها السلطانية، توفّي سنة ٧١٦ هـ. ينظر: الدرر الكامنة: ٣ / ٣٧٨ ترجمة رقم: ١٠٠٣.

(٢) المناظرات في الإمامة: ٣٣١-٣٣٢.

(٣) م. ن: ٣٣٢.

(٤) م. ن: ٣٣٢.

(5) Michel Meyer. de la problematologie, p. 234.

نقلًا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢٠٧.

«فبعث كتابه إلى العلامة وأحضره، فلمّا بعث إليه، قال علماء العامّة: إنّ له مذهباً باطلاً، ولا عقل للروافض، ولا يليق بالملك أن يبعث إلى طلب رجل خفيف العقل. قال الملك: حتّى يحضر، فلمّا حضر العلامة، بعث الملك إلى جميع علماء المذاهب الأربعة وجمعهم، فلمّا دخل العلامة أخذ نعليه بيده ودخل المجلس، وقال: السلام عليكم، وجلس عند الملك. فقالوا للملك: ألم نقل لك إنّهم ضعفاء العقول؟»^(١)، فهذا السؤال دعوة إلى المناظرة، والمشط الحاسم لمجراها.

ج. بعد إثارة الخلاف:

ينطوي السؤال في افتتاح المناظرة أيضاً على مقصدية إثارة الخلاف، ورسم المسافة منذ البداية بين المتناظرين، وعملية الإقناع في المناظرات تستلزم المسائل الخلافية، ومحطّ السؤال فيها قضايا خلافية أيضاً، وفي مناظرة العلامة الحليّ تبلور السؤال في مواقف متعارضة بين المتناظرين حول قضية خلافية، هي: غضب الشاه خدابنده على امرأته وتطليقها ثلاثاً.

د. بعد الفرجة:

وفيه بداية العرض بسؤال أحد الحاضرين للمناظرة، وليس المشاركين فيها، ويتّضح ذلك في مناظرة العلامة الحليّ بسؤال الشاه خدابنده علماء المذاهب الأربعة عن سبب تصرفات العلامة الحليّ: «اسألوا عنه في كلّ ما فعل»^(٢)، وعليه يمكن الإقرار بأنّ غايات السؤال في افتتاح المناظرات «شدّ انتباه الحاضرين وإعلامهم بأنّ المناظرة قد بدأت، فالسؤال بشكل آخر يبحث عن التواصل مع الآخرين، ويطلب منهم توجيه اهتمامهم إلى ما سيجري»^(٣).

(١) المناظرات في الإمامة: ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) م.ن: ٣٣٣.

(٣) المناظرة في الأدب العربي الإسلامي: ٢٥٢.

أبعاد السؤال في طوري المواجهة والمدافعة في المناظرة

١. طبيعة السؤال:

إن متابعة الاستفهامات الواردة في المناظرة يقود إلى الإقرار بأنّها في طبيعتها الغالبة استفهامات (محصورة)، وليست (مفوّضة)^(١). ومعلوم أنّ السؤال المحصور هو «ما حصرت فيه على المجيب أن يجيب إلّا ببعض السؤال، كقولك: ألحمًا أكلت أم خبزًا؟ فقد حصرت عليه أن يجيبك إلّا بأحدهما، أمّا المفوّض، فهو كقولك: ما أكلت؟ فله أن يقول ما شاء من المأكولات؛ لأنّك قد فوّضت الجواب إليه»^(٢). ومن شواهد في مناظرة العلامة الحليّ «عندكم في كلّ مسألة أفاويل مختلفة، أو ليس لكم هنا اختلاف؟ فقالوا: لا»^(٣).

إنّ السؤال المحصور يمثّل ما سمّاه ميشال ماير بسؤال التحديد^(٤)، واستعماله في المناظرة يفيد في تقييد البحث، وتحديد الموضوع في المناظرة، ثمّ إنّ استحضر سؤال التحديد (المحصور) يؤثّر على أنّ المناظرة بها هي محاورة، لا يقبل عليها المتناظران خاليي الذهن، بل تجمعهما معرفة مشتركة، أو هما بصدد البحث عن معنى مشترك^(٥).

سؤال التبرير:

إنّ الميزة المهمّة لسؤال المناظرة هي ارتباطه بالتبرير، ونرى شواهد في مناظرة

(١) بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢١٢.

(٢) البرهان في وجوه البيان: ٩٤.

(٣) المناظرات في الإمامة: ٣٣١-٣٣٢.

(4) Michel meyer. les fondements de l'argumentation, p. 27.

نقلًا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(5) Michel meyer. de la problematologie, p. 43.

نقلًا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢١٣.

العلامة الحلي، «فقالوا له: لم ما سجدت للملك وتركت الآداب؟ فقال: إن رسول الله ﷺ كان ملكاً وكان يسلم عليه، وقال الله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ﴾^(١)، ولا خلاف بيننا وبينكم أنه لا يجوز السجود لغير الله.

قالوا له: لم جلست عند الملك؟ قال: لم يكن مكان غيره. وكل ما يقول العلامة بالعربي، كان المترجم يترجم للملك^(٢).

إن اعتماد اسئلة التبرير في المناظرة مرده «إلى طبيعتها الحجاجية، فهذا السؤال تتم المطالبة بالحجة، وبناء الموقف وتعليقه، إنه سؤال لا يستدعي الحكم فقط، بل يستدعي دعائمه، ويتوضّح الأسس التي قادت اليه، وبذلك فسؤال التبرير اختبار وقياس للحدود الإقناعية للموقف المتبنى^(٣)، فضلاً عن ذلك فإن سؤال التبرير «علامة خطائية على أن القضايا التي يتداولها المتناظران معرضة باستمرار للمراجعة والشك حتى يستقيم بناؤها الحجاجي، ومن ثم فالقضايا لا تكتسب مصداقيتها، ولا تصبح متقاسمة بين المتناظرين، أو ملزمة لأحدهما حتى تُجيب عن مطالب التبرير التي يعلنها الآخر إزاءها^(٤)».

السؤال المصحوب بأفعال الرأي:

وترد الاستفهامات الحجاجية مقرونة بأفعال الرأي، ومصادق ذلك في مناظرة العلامة الحلي «فبعث كتابه إلى العلامة وأحضره، فلمّا بعث إليه، قال علماء العامة:

(١) النور: ٦١.

(٢) المناظرات في الإمامة: ٣٣٤.

(٣) بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢١٤.

(٤) م.ن: ٢١٤.

إنَّ له مذهباً باطلاً، ولا عقل للروافض، ولا يليق بالملك أن يبعث إلى طلب رجل خفيف العقل. قال الملك: حتَّى يحضر، فلمَّا حضر العلامة بعث الملك إلى جميع علماء المذاهب الأربعة وجمعهم، فلمَّا دخل العلامة أخذ نعليه بيده ودخل المجلس، وقال: السلام عليكم، وجلس عند الملك. فقالوا للملك: ألم نقل لك إنَّهم ضعفاء العقول؟^(١).

٢. مقصديّات السؤال:

لا يرتبط الاستفهام في المناظرة إلّا فيما ندر بدلالته الحقيقيّة، بل يؤدّي أغراضاً أخرى تعكس الطاقة الحجاجيّة التي تميّز بها، ويمكن عمومًا اختزال أغراض الاستفهام داخل المناظرة في:

أ. سؤال الاستنكار.

ب. سؤال التقرير.

ج. سؤال التوريط.

د. السؤال الجوابي^(٢).

سؤال التوريط:

إذا كان هدف المناظرة الإلزام والإفحام للخصم في القضية المعروضة، فإنَّ الإستراتيجية الحجاجيّة في التوريط عملٌ يتوخّى إرباك الخصم؛ فيجرّهُ إلى خلاف اعتقاده، أو التنكر لرأيه، والانسجام مع موقف مناظره^(٣).

(١) المناظرات في الإمامة: ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) بلاغة الإقناع في المناظرة: ٢١٥.

(٣) م: ٢١٨.

إنَّ استنفهامات التوريط التي تشتغل بوصفها آليّة إقناعيّة في مناظرة العلامة الحليّ، تتوخّى الرَجَّ بالخصم «في حالة حرجة مراهنّة على أن لا يتخلّص منها، أو (على الأقل) يخرج منها بشكل سيّء، وبالتالي تسجّل نقطة ضده»^(١).

إنَّ الاسئلة التي يتوخّاها العلامة الحليّ في مناظرته مصيدة محكمة تجرّ الخصم إلى سياق فكريّ مناهض لمذهبه العقديّ، ومن ثمّ يتحوّل إلى محاجج ضد كينونته المعرفيّة وأفكاره من دون أن يشعر، لذلك عدّ أحد الباحثين أنَّ السائل يسعى من خلال هذا الاستفهام «ظاهريّاً إلى الاستعلام أو إلى توظيف ما هو غامض لديه، ولكنّه في الحقيقة يسعى إلى تفتيت منهج التفكير والدفاع عند الخصم عن طريق التعاقب، والخصم في هذه الحالة، دون أن يريد، يشارك في بناء هذا المنهج الاحتجاجيّ عندما يجيب عن الأسئلة»^(٢).

والعلامة الحليّ يقوم بما يمكن أن نسّميه مقدّمات الأسئلة التوريطيّة، وذلك بأن يقوم بأفعال تستوجب السؤال من المناظر، كونها تحمل دلالة التقليل من شأن الشاه، كي يجبرهم على السؤال بعد دعوة الشاه لهم بذلك/ توجيه السؤال: «فلما حضر العلامة بعث الملك إلى جميع علماء المذاهب الأربعة وجمعهم، فلما دخل العلامة أخذ نعليه بيده ودخل المجلس، وقال: السلام عليكم، وجلس عند الملك. فقالوا للملك: ألم نقل لك إنهم ضعفاء العقول؟ قال الملك: اسألوا منه في كلّ ما فعل.

فقالوا له: لم ما سجدت للملك وتركت الآداب؟ فقال: إن رسول الله ﷺ كان ملكاً وكان يسلم عليه، وقال الله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةً﴾^(٣)، ولا خلاف بيننا وبينكم أنّه لا يجوز السجود لغير الله.

(1) Pierre Oleron: Organization et Articulation des Echanges de Paroles, p. 65.

نقلاً عن: بلاغة الاقناع في المناظرة: ٢٠٧.

(٢) المناظرة في الأدب العربيّ الإسلاميّ: ٢٥٥.

(٣) النور: ٦١.

قالوا له: لم جلست عند الملك؟ قال: لم يكن مكان غيره. وكل ما يقول العلامة بالعربي كان المترجم يترجم للملك»^(١).

وهنا أفحمهم بالإجابة من خلال اتّخاذ الشاهد القرآني دليلاً إقناعياً على مصداق ما يقول، أو المصداق الواقعي في قوله: لم يكن مكان غيره.

ثمَّ يُجرّهم إلى مصيدة الأسئلة التوريطيّة في قوله: «قالوا له: لأيّ شيء أخذت نعلك معك، وهذا ممّا لا يليق بعامل، بل إنسان؟ قال: خفت أن يسرقه الحنفيّة كما سرق أبو حنيفة نعل رسول الله ﷺ»^(٢).

فتأتي الإجابة الفكرية الإقناعية من الخصم «فصاحت الحنفيّة: حاشا وكلاً، متى كان أبو حنيفة في زمان رسول الله ﷺ؟، بل كان تولّده بعد المائة من وفاته ﷺ»^(٣)، ولا يخفى حدّة الاجابة الاستفهاميّة الزمانيّة (متى)، وتوكيدها بالفعل (فصاحت)، ودلالة (حاشا وكلاً) مسبقاً بما يركّز المحجاجة من الخصم ضدّ منظومته العقديّة من دون أن يشعر، ويثبت الدليل والبرهان الحجاجي الدامغ على نفسه.

ثمَّ يدّعي النسيان المعرفي، فيقول: «فنسيت فلعلّه السارق الشافعي»^(٤)، لتتعالى الأصوات «فصاحت الشافعية كذلك، وقالوا: كان تولّد الشافعي في يوم وفاة أبي حنيفة، وكانت نشوؤه في المائتين من وفاة رسول الله ﷺ»^(٥).

ويستمر العلامة الحلي بتوريط بقيّة علماء المذاهب الأربعة، فيأتي دور المالكية

(١) المناظرات في الإمامة: ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) م. ن: ٣٣٤.

(٣) م. ن: ٣٣٤.

(٤) م. ن: ٣٣٤.

(٥) م. ن: ٣٣٤.

والحنبلية، فيقول: «لعله كان مالك، فصاحت المالكية كالأولين. فقال: لعله كان أحمد ففعلت الحنبلية كذلك»^(١).

وبعد أن يسدل العلامة الحلي الستار على أسئلته التوريطية، يصل إلى مسك ختام مناظرته بإقامة البرهان القاطع بأحقية مذهب أهل البيت عليهم السلام في الإمامة وأفضليتهم على المذاهب الأربعة، وحل مسألة الطلاق، ف«أقبل العلامة إلى الملك، وقال: أيها الملك علمت أن رؤساء المذاهب الأربعة لم يكن أحدهم في زمن رسول الله ولا الصحابة، فهذا أحد بدعهم أنهم اختاروا من مجتهدهم هذه الأربعة، ولو كان فيهم من كان أفضل منهم بمراتب لا يجوزون أن يجتهد بخلاف ما أفتى واحد منهم. فقال الملك: ما كان واحد منهم في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله والصحابة؟ فقال الجميع: لا.

فقال العلامة: ونحن معاشر الشيعة تابعون لأمر المؤمنين عليهم السلام نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، وأخيه وابن عمه ووصيه، وعلى أي حال، فالطلاق الذي أوقعه الملك باطل؛ لأنه لم يتحقق شروطه، ومنها العدلان، فهل قال الملك بمحضرهما؟ قال: لا»^(٢).

وكانت نتائج هذه المناظرة أن تشيع الشاه، وأهل البلاد «ثم شرع في البحث مع العلماء حتى ألزمهم جميعاً، فتشيع الملك، وبعث إلى البلاد والأقاليم حتى يخطبوا بالأئمة الاثني عشر عليهم السلام، ويضربوا السكك على أسمائهم، وينقشوها على أطراف المساجد والمشاهد منهم»^(٣).

(١) المناظرات في الإمامة: ٣٣٤.

(٢) م.ن: ٣٣٥.

(٣) م.ن: ٣٣٥.

الخاتمة

بعد حمد الله وتوفيقه آن لنا ان نختم بحثنا بعد ان نظرنا إلى الاستفهام الحجاجي كمقتضى إقناعي بوصفه منهجاً لتحليل الخطاب عبر بنيته واساليبه وآلياته اللغوية، وان نشرع ببيان نتائج بحثنا وهي:

- حدّدت معاني المناظرة لغةً واصطلاحاً بما يفي دلالتها المعرفية الإشهارية.
- أكّدت البحث إجرائياً مدعماً بالشواهد حجّية المناظرة ومشروعيتها في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ونصوص أهل البيت عليهم السلام.
- للمناظرة آداب معروفة ينبغي للمتخاصمين مراعاتها عند الخوض في الخطاب الحجاجي، والاشتغال الإقناعي للمناظرة.
- تعدّ المناظرة آيقونة خطابية، فهي فرع من فروع الخطابة، ولدت من رحمها، ونمت وتطوّرت حتّى قيل عنها (خطابة حجاجية)؛ لكنها تميّزت عن الخطابة في كونها تقتضي خطاب الخاصّة، كما أنّها خطابة مشبعة بالمحاجة الفكرية والمذهبية.
- عدّ خروج الاستفهام عن حقيقته إلى الاستفهام الحجاجي، الذي يرتبط فيها بغايات إقناعية، في جنسٍ اشتغل على مقامات عقدية تسالم عليها المتناظرون.

- أخذ الاستفهام الحجاجي في المناظرة دورًا محوريًا، فمبنى المناظرة قائم على السجال الذي يقتضي اختلاف الذوات في قضية محدّدة، والاستفهام هو مغذّي النقاش والشاحن للجدل والمحااجة.
- شغل الاستفهام الحجاجي أبعاد المناظرة الشكلية في طور الافتتاح، وطوري المواجهة والمدافعة.
- تجلّى الإقناع في الاشتغال الحجاجي للاستفهام الذي تحوّل عن دلالاته الحقيقية؛ ليصبح أداة لإيقاع الطرف الآخر، أو استدراجه إلى مقصد التوريث.



ثبت المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- الاحتجاج، الشيخ الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تعليق وملاحظات السيّد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- الأمالي، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) تحقيق حسين الأستاذ ولي وعلي أكبر الغفاري، ط ٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- أهمّ نظريّات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، د. جمادي صمود، ط ١، منشورات كليّة الآداب، منوبة، تونس، ١٩٩٨م.
- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تقديم وتحقيق حفي محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، ١٩٦٩م.
- بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، ط ١، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ٢٠١٣م.
- تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، ط ٤، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، د.ت.
- تصحيح اعتقادات الإماميّة، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق حسني

دركاهي، ط ٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ط ١، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ٢٠٠١م.

- الحكايات، الشيخ المفيد (ت ١٣٤٤هـ)، تحقيق السيّد محمّد رضا الجلاي، ط ٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة - دراسة تداوليّة، (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، ٢٠١٠م

- خطاب المناظرة في التراث العربي (مقاربات لآليات بلاغة الإقناع)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، ٢٠٠٣-٢٠٠٤م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق محمّد عبد المعين خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٤٩هـ.

- دلائل الصدق لنهج الحق، الشيخ محمّد حسن المظفر (ت ١٣٧٥هـ)، ط ١، مطبعة ستارة، قم، ١٤٢٢هـ.

- الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن السادس للهجرة (مشروع قراءة إنشائية)، صالح بن رمضان، رسالة ماجستير، كلية الآداب، منوبة، تونس، ٢٠٠١م.

- رسائل الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة - دراسة حجاجية، رائد مجيد جبّار الزبيدي، (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- شرح آداب البحث، طاش كبرى زادة، مجلة المناظرة، السنة الثانية، العدد ٣، ذو الحجة ١٤١٠هـ، يونيو ١٩٩٠م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق علوم الإعجاز.
- الفصول المختارة من العيون والمحاسن، الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، ط ٤، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، ط ٥، دار المعارف، مصر، د.ت.
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، د. محمد العمري، سلسلة الدراسات النقدية، ط ١، دار الثقافة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، د. ط، د. م، د. ت.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.
- لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، ط ١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م.
- المخصّص، ابن سيده (ت ٤٥٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.

- المناظرات في الإمامة، تأليف وتحقيق الشيخ عبد الله الحسن، ط ١، مطبعة مهر، قم ١٤١٥هـ.
- المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، د. حسين الصديق، ط ١، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٣٨٣هـ)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين، قم، د.ت.
- المنهج وأدب الحوار في مناظرة السيرافي ومتمّي، محمد حسن عبد الله، مجلّة البيان الكويتيّة، العدد ٣٦٨، الكويت، مارس ٢٠٠١م.
- منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، الشهيد الثاني (ت ٩٦٥هـ)، تحقيق رضا المختاري، ط ١، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، د.ت.



